تعقيبات

للأستاذ أنور المعداوى

رسالة الجنوب الى الشمال :

يا أخى فى الشمال ، يا أخى فى الله والدين والوطن . . باسم كل أخ لك فى الجنوب ؛ باسم كل سودانى كريم على نفسه وكريم على وطنه ، يطيب لى أن أوجه إليك الحديث كما وجهته إلينا على صفحات الرسالة ، حافلا بصدق الوطنية ، زاخرا بعمق الأخوة ، ملتهبا بحرارة الإيمان !

حقا يا أخى إننا فى « ميدان الجهاد يد تمد إلى يد ، وفى معرض التضحية قدم تسعى إلى قدم ، وفى مجال الوفاء عاطفة تقبس من عاطفة » .. ولله ما كان أصدقك وأنت ترسل صرختك المدوية التى أيقظت كل ضمير وهزت كل شعور : « إن الشمال لن يتفرق ، وإن البناء لن يتصدع ، ما دامت هذه الفطرات الأبية من الدم المسفوك على ضفاف القناة وفوق ثرى الخرطوم ، قد ألقت على الطغاة أروع الدروس فى التضحية والبذل والفداء ، وأقلقت منهم المضاجع وهى سارية فى العروق وهى جارية على الأرض ، وهى فى حركة الحياة الطليقة وهى فى سكون العدم » !

أجل يا أخى ورددها إذا شئت ، فقد رددناها معك باللسان وحفظناها فى قرارة الوجدان ، واتخذناها شعارا للأخوة المقدسة التى « استروحت أنسام الأرض الطيبة على ضفاف نهر واحد وتحت سماء وطن واحد » . . إننى لا أجد خيرا من كلماتك لأعيدها إليك ، مضمخة بعطر الجنوب مثيرة بوشاح هواه ، لأن « أنشودة الجهاد التى بدأتموها فى شمال الوادى قد أذن الله أن ترسل أنغامها فى جنوبه ؛ وكل نغم إلى فناء ، وكل نار إلى رماد ، وكل ذكرى إلى نسيان . . ولكن أنغامنا وهى أنغامكم ستظل إلى الأبد ترن فى مسمع الزمن ، ولكن نارنا وهى ناركم ستظل إلى الأبد تنير الطريق للحائرين ، ولكن ذكرانا وهى ذكراكم ستظل إلى الأبد قصة تروى وعطرا يفوح » !

إن محاول الاستعمار التى تحاول أن تهدم صرح الوحدة ، وإن قوى الشر التى تحلم بأن تهيل عليها التراب ، ستنتهى آخر الأمر بالخيبة وتبوء بالخذلان ، لأن ما بنته يد الله لا يمكن أن تنال منه يد الشيطان . . إن هذه الوحدة الطبيعية يا أخى ، هذه الأرض التى تجمعنا ، هى إرادة العمل الرزين والتحرير التام . إننا هنا لتطربنا أصواتكم ، أصوات المؤمنين بحق الشمال والجنوب فى حياة حرة كريمة ، قوامها الوفاء الخالص وعمادها الإباء الخالد . أما أصواتنا فهى تمانقكم فى كل أفق ، وتصافحكم فى كل طريق ، وتناجيكم على أوراق الصحف وأمواج الأثير . . ولن تنسى صوتك وصوت شاعركم الخالد وهو يقدم إلينا لوعة الشعر فى محنة الشعور :

فكيف تلاحينى وألحاك إننى ... شهيدك فى هذا وأنت شهيدى
حياتك فى الوادى حياتى فإنما ... وجودك فى هذى الحياة وجودى !

مرة أخرى يطيب لى أن أستعير من كلماتك ما أوجهه إلى كل أخ فى الشمال : « ولا علينا يا أخى من تلك القيود ، إن معدنها الرخيص سيذوب يوما تحت وهج النار المتأججة فى حنايا الضلوع . . وسنمضى اليوم وغدا جنبا إلى جنب ، وقلبا إلى قلب ، وعيوننا أبدا إلى الأفق البعيد » !

أخوك فى الجنوب

« دروهيب — السودان » عبد الله الحاج يوسف

هذه الرسالة الكريمة لم تكن الوحيدة التى تلقيتها من أبناء الجنوب ، وإنما تلقيت من أمثالها الكثير . . وأكتفى اليوم بنشرها لأنها نفحة شعور تعبر عن نفحات ، وخفقة قلب تنوب عن خفقات ، حين تنفى الدلالة الوحية فى مثل هذا المقام عن كل سرد وإحصاء !

إننا نعلم حق العلم أن أصواتنا تملأ أرجاء الجنوب وتتردد فى حنايا الصدور ، وغم الضجيج المنبعث من أبواق الرجفين . . إن صوت الحق لا بد أن يرتفع فوق صوت الباطل ، وإن منطق العدل الحبيب لابد أن يطغى على منطق الظلم البغيض ، وإن نداء الحرية لابد أن يبلغ الأسماع وإن حالت بينه وبينها السدود والقيود !

إننا حين نتوجه بدعوتنا الخالصة إلى أبناء السودان ، ندرك كل الإدراك ما تكنه لنا الكثرة الغالبة من إخاء يسمو على الترغيب ووفاء يعز على الترهيب ؛ لأننا نعيش على ضفاف النيل ولا نعيش على ضفاف التامز ، ونتطق بلغة القرآن ولا ننطق بلغة الطغيان ، ونفخر بالوجوه السمر حين يفخر غيرنا بالوجوه الحمر . . الوجوه الصفيقة التي لم تعرف في تاريخها الطويل حمرة الخجل من ضيعة الضمير وانحطاط الشعور بالإنسانية ! !

إنهم ، أصحاب الوجوه التي تصطبغ بكل حمرة غير حمرة الخجل ، يؤكدون أن سر بقائهم اليوم في السودان هو حمايته من الاستعمار المصري .. وهم ، هم أنفسهم ، أصحاب المنطق الذي يتحدث بكل لغة غير لغة الحياء ، يؤكدون أيضا أن سر بقائهم في مصر هو حمايتها من الاستعمار الروسي ! وفي سبيل درء الخطر عنا ، نحن « أصدقاءهم » في الجنوب و « حلفاءهم » في الشمال ، دوى الرصاص يمزق الأجسام على ضفاف القنال ويلهب الرءوس فوق ثرى الخرطوم .. ولم يكن الرصاص الذي أصاب السودانيين مصريا أو الرصاص الذي أصاب المصريين روسيا على التحقيق ، وإنما كان رصاصا بريطانيا « صديقا » وقفت من ورائه الوجوه « الحليفة » ؛ الوجوه الحمر التي اكتسبت لونها على مر الزمن من دم الأحرار في كل مكان !

لقد وقف أندريه فيشنسكي فوق منبر الأمم المتحدة ليندد بصور الوحشية البريطانية في شمال الوادي ، ووقف من قبله محمد صلاح الدين ليندد مظاهر الهمجية البريطانية في جنوبه ؛ والأول إذا لم تكن تهم هو وزير خارجية روسيا التي يتهمه الإنجليز بأنه يتطلع إلى احتلال مصر ، والثاني إذا لم تكن تفهم هو وزير خارجية مصر التي يتهمه الإنجليز بأنه يهدف إلى احتلال السودان .. ولا تعجب لمثل هذا الاتهام حين يصدر من منطق اللصوص ؛ اللصوص الذين يسيئون إلى الفهم منطق ذلك اللص الخالد في جرأته الخالدة ، حين سمع وقع أقدام تقترب فرفع من صوته « الأبي » وكشف من وجهه « الحيي » ، ليقول لرجل البوليس في غير تلعثم ولا اضطراب : « مين اللي ماشي هناك » ؟ !

ماذا تقول لهذا المنطق ؟ منطق قطاع الطرق حين يستخدمون لغة المحافظين على الأمن والساهرين على النظام ؟! لقد تحديناهم من فوق منبر الأمم المتحدة على لسان صلاح الدين ، تحديناهم أن يعرضوا على السودانيين استفتاء حرا بعيدا عن قوة البطش وسطوة الإرهاب ، ليسمع العالم صوت الجنوب منبعثا من أعماق القلوب . . تحديناهم فصمتوا صمت القبور ، لأنهم يعلمون إذا قبلوا التحدي مادا ينتظر حكمهم « العادل » من مصير ! صمتوا ونطقت شركات الأنباء حين نقلت إلى صحف العالم قصة الأيدي المصفقة لصلاح الدين ؛ أيدي الأعضاء الذين هزم صوت الحق فيهم وهم وقوف .. ومع ذلك فلم يحرك صوت الأيدي المصفقة صمت الوجوه الصفيقة ، لأنها لا ترهب غير صوت الحديد والنار ! !

هذه العبارات الأخيرة هي التي نود أن يفهمها طلاب الحرية في الشمال والجنوب . . لقد فهمها الأمريكيون بالأمس البعيد فاستخلصوا من الذل كرامة ، وفهمها الأيرلنديون بالأمس القريب فخلقوا من العدم حياة ، وفهمها اليهود آخر الأمر فأقاموا من الوهم دولة ! ولقد كانت اللغة الوحيدة التي خوطب بها البريطانيون هنا وهناك ، كانت كما قلنا لغة النار والحديد .. وإنها في منطق الحرية لأشرف اللغات ، في كل حاضر وآت ! !

معالي وزير المعارف والاستعمار الثقافي :

في العدد الأسبق من « الرسالة » كتبت مقالا عن موقفنا من الاستعمار الثقافي بدأته بهذه الكلمات : « ما هو موقفنا اليوم من الاستعمار الثقافي ؟ سؤال يتردد في الأذهان ومن حقه أن يتردد ، ويستقر على كل لسان ومن حقه أن يستقر ، ويوجه إلى معالي وزير المعارف ورجاء السائلين فيه أن يجيب » !

قلت هذا ثم أبديت رأيي فيما يجب أن يكون عليه موقفنا من اللغة الإنجليزية والثقافة الإنجليزية ، بعد أن لقي المصريون من نذالة الإنجليز ما نطقت به الأقلام والأجسام ، هذه بدمائها وتلك بجلودها في معرض الثورة على مظاهر الظلم والغدر والطغيان .. أبديت رأيي ملخصا في هذه السطور : « هذه اللغة وتلك الثقافة كلتاهما تحتل مكانها المقدس في المدارس والجامعات ، فلم لا نستبدل بها لغة الألمان وثقافة الألمان ، أو لغة الروس

وثقافة الروس ، أو لغة الفرنسيين وثقافة الفرنسيين ؟ لم لا نفعل والمعنى البعيد كامن وراء هذه الكلمات ؟ المعنى البعيد الذى يتمثل فى كرامتنا حين نكون « أحرارا » فى اختيار لغة أخرى غير لغة الخصوم ، وتفضيل ثقافة أخرى على ثقافة الأعداء » ؟!

كتبت هذه الكلمات كما سبق أن قلت ، فى عدد « الرسالة » الذى ظهر فى اليوم السادس والعشرين من نوفمبر . وفى اليوم الثالث من ديسمبر ، أى بعد ذلك بأسبوع واحد ، طلعت جريدة « الأهرام » على القراء بهذا النبأ : « قرر معالى وزير المعارف أن تكون اللغات الأوربية التى تدرس فى المدارس الثانوية طبقا لقانون التعليم الثانوى الجديد هى : الفرنسية والإنجليزية والألمانية والإيطالية ، على أن تكون إحدى اللغتين الأوليين أصلية ، وإحدى اللغتين الأخريين إضافية ، وأن يبدأ تنفيذ هذا القرار بمدارس القاهرة والإسكندرية هذا العام ، ثم يتم تعميمه تدريجا .. وطلب معاليه إلى الهيئات الثقافية فى السفارة الإيطالية والقوضية السويسرية ترشيح مدرسين للغتين الإيطالية والألمانية » !

هذا هو النبأ الذى نقلته « الأهرام » إلى الجمهور القارئ منذ أيام .. ولقد كنت أود وقد تفضل معالى الوزير فحقق بعض الأمل الذى تطلع إليه هذا القلم فى رغبته ؛ كنت أفضل ألا يكون للغة الإنجليزية مثل هذا المقام « الأول » أو المكان « المحترم » بين غيرها من اللغات ، وأن تجد اللغة الروسية مكانا إلى جانب اللغتين الجديدتين وأعنى بهما الألمانية والإيطالية ! إننى لا أستطيع أن أنكر هذه الخطوة الموفقة لمعالى وزير المعارف ، لأنها تحمل فى أحشائها جنين تلك الفكرة التى جعلت منها المحور الأصيل لما كتبت ، وأعنى بها فسح المجال للغات أجنبية أخرى تشعرنا بأننا « أحرار » فى الاختيار ، ولسنا مرغمين على قبول لغة بعينها خضوعا لرغبة مستمرة عقدنا العزم على التخلص من آثاره وأوزاره !

إن هذه الخطوة « تحمل » فى أحشائها « جنين » تلك الفكرة ؛ ولكنى كنت أرجو أن « تضع » لنا « مولودا » مكتمل الخلقة واضح القسمات . مهما يكن من شىء فإن لمعالى وزير المعارف وجهة نظره التى أملت عليه مثل هذا القرار ؛ ولكننى مازلت أطالب بألا يكون للغة الإنجليزية مثل تلك « الأولوية » التى اكتسبتها فى رحاب هذا الوضع الجديد ! وأود أن أقترح — مادام معاليه يريد الإبقاء على تلك اللغة — منح الحرية للطلاب فى اختيار لغتين من تلك اللغات الأربع ، ولا بأس من أن تكون إحداهما أصليه والأخرى إضافية ؛ أعنى ألا يكون هناك « إرغام » على أن تكون لغة بالذات فى المقام الأول .. ولعل الهدف الذى أرمى إليه واضح لا يحتاج إلى تفسير ، حين ألخصه فى كلمة واحدة هى « الحرية » . . الحرية فى اختيار اللغات والثقافات !

أما اللغة الروسية والثقافة الروسية فلنا إليهما عودة فى المقال المقبل ، حين نعرض لموقفنا من الاتحاد السوفيتى كدولة لا كنظام من نظم الحكم ، تبعا لموقفه منا فى هذه الأيام !

أسئلة من القراء :

سألنى بعض القراء عن المعنى الذى رميت إليه من وراء هذا التعبير : « أشهد أن تلك اللغة ليست أشرف اللغات » ، حين كنت أتحدث عن اللغة الإنجليزية وأطالب بإلغائها فى المدارس والجامعات .. ثم انتقل بعضهم من هذا السؤال إلى سؤال آخر : ما هى ضوابط اللغة الشريفة فى رأيكم ؟!

وردا على حضراتهم أقول : إننى ما عمدت إلى هذا التعبير إلا وأنا أرمى من ورائه إلى السخرية أو « التريقة » . . ولعل المفتاح كامن هناك ، فى ذلك التعبير الآخر الذى يسبق هذا التعبير حين قلت : إن اللغة الإنجليزية تحتل مكانها « المقدس » فى المدارس والجامعات . . ومن هنا يكون هدف السخرية المقصودة هو لماذا تقدس هذه اللغة تقديس القيم الشريفة ، وهى ليست من هذا المعنى الأخير فى شىء ؟!

أما بقية الأسئلة وهى لحضرات الأدباء : منير آل ياسين ببغداد حول « الشعر المرسل أو الشعر المنثور » ، ومحمد رفعت الدوبانى بالقاهرة حول « مسرحية دنشواى الحمراء » ، ومحمود سلطان البدراوى بأسيوط حول « الأساليب الأدبية » . واليمانى أحمد السكرى بكفر الشيخ حول « الاستعمار الثقافى » .. فإن موعدى مع الإجابة عنها فى المقال المقبل إن شاء الله

أنور المعداوى